



تونس في زمن المثابرة (١) حياة طبيعية والتكافل يحمي الانفتاح

انها حكاية الكأس التي يكون نصفها ملأنا والنصف الآخر فارغا، فيحترار الناظر اليها كيف يعرفها: بألفراغ ام بالملء؟ هكذا تبدو تونس للزائر العربي في زمن "المثابرة".

والمثابرة هي كلمة السر التي اختارها الحكم في تونس عنوانا، بل اسما للمؤتمر الثاني للتجمع الدستوري الديمقراطي، المنعقد بين ٢٩ تموز واول آب في قصر المؤتمرات في العاصمة. فصار "مؤتمر المثابرة" الاسم العلم الأكثر تردادا في الصحف والاعلام المرئي والمسموع، طبعا بعد اسم الرئيس زين العابدين بن علي. اسم علم يخص الحزب القديم - الجديد الحاكم، لكنه في الوقت نفسه شعار للحكم، بل والدولة، تماما كما كانت كلمة "الانقاذ" قبل خمس سنوات عنوانا لمؤتمر الحزب عينه وشعارا للدولة في آن واحد. وهنا تختلط الامور. فمن "مؤتمر الانقاذ" المنعقد عام ١٩٨٨ بعد اشهر على تنحية "المجاهد الاكبر" الحبيب بورقيبة عن الرئاسة، الى "مؤتمر المثابرة"، تعيش تونس مفارقة دائمة هي المفارقة بين اشكالية الديمقراطية المتبناة رسميا والاختلاط المستمر بين الحزب والدولة.

أبالماء اذا يعرف الزائر الكأس التونسية، ام بالفراغ؟

بتعبير آخر، اهو بلد على درب الديمقراطية ام صورة مجملة لاستبداد الحكم الواحد؟ واحة من الاستقرار والحياة الرغيدة وسط الاضطراب العربي، ام تجسيد ملطف لعصر الانحطاط الجديد؟

كلا الطرحين صحيح على الارجح. او لنقل ان الحقيقة تترجح بين الاثنين. ولعل خصوصية تونس هنا بالتحديد، اي في كونها تأبى الانغلاق داخل خيار تبسيطي بين الاسود والابيض، فترغم الزائر على البحث عن تلاوين اكثر تعقيدا وتجعله يكتشف كيف تكون صيرورة هذا البلد تثبيتا لقاعدة التراجع العربي وخروجا عنها في آن واحد.

كثيرة هي بالفعل مبررات استثناء تونس من القاعدة العربية، والظواهر التي تدفع الى النظر اليها بإيجابية. اول هذه المبررات ان الحياة فيها طبيعية في شكل لم يعد طبيعيا في بلد عربي. لذا، فإن اول ما ينتبه اليه الوافد من بلد عربي آخر هو هذا الانتظام العادي للحياة العامة وغياب اي توتر ظاهر. فالبلد ممسوك امنيا ولكن من دون ان ينعكس ذلك في الحياة اليومية للناس العاديين قيودا تحد من حركتهم. صحيح ان الدوريات الامنية كثيرة في الليل، لكن جلها لشرطة المرور.

وإذا كان العاملون في القطاعات السياحية ابدوا امتعاضا، في اوائل الموسم، من حجم الوجود البوليسي في الشوارع، فقد اخذت شكواهم في الاعتبار، وتم تخفيف هذا الوجود. حتى الاجراءات التي رافقت انعقاد مؤتمر التجمع الدستوري الديمقراطي في قلب العاصمة بقيت في مستوى معقول،



ولم تعكر حركة السير في المدينة، وان يكن تعدد مراكز التدقيق في البطاقات في المحيط المباشر لقصر المؤتمرات وداخله ينم عن وجود هم امني حاد لدى المسؤولين.

ليس الاستقرار الامني، ولا فاعلية الاجهزة التونسية المختصة بالشيء الجديد. فتونس لم تعرف اخلالا جديا بالامن في الماضي، سواء في عهد الحبيب بورقيبة او منذ وصول الرئيس بن علي الى اعلى السلطة عام ١٩٨٧. حدثت بالطبع فورات، لكنها كانت آنية، مثل "ثورة الخبز" عام ١٩٨٤، او محصورة في الوسط الجامعي او العمالي. اما لجوء حركة "النهضة" الاصولية الى العنف في ١٩٩١ و ١٩٩٢، فقد تمت مواجهته بسرعة قبل ان ينال من تقليد الاستقرار الامني التونسي، ومن سمعة "البلد الصديق"، حسب شعار المستعمل لاستقطاب السياح في الحملات الدعائية التونسية في اوروبا.

ومع ذلك، يبقى الاطمئنان الذي تنعم به تونس ظاهرة لافتة، لا سيما اذا قورن بالاضطراب السائد في الجزائر او في مصر. وتتعزز صورة الطمأنينة السائدة عند رؤية كثافة السياح في الشوارع والفنادق وعلى الشواطىء.

وللوجود السياحي الكثيف في هذا الصيف دلالة في غاية الاهمية. فهو يؤكد تعافي هذا القطاع بعد الكساد الذي اصابه من جراء حرب الخليج (وايضا بسبب المواقف التونسية المناهضة للحرب الاميركية). في الحقيقة، كانت حركة السياحة استعادت زخمها منذ الصيف الماضي، على رغم المعركة التي كانت دائرة وقتئذ بين الدولة والاصوليين. وكانت تلك الاستعادة من اهم اسباب الانتعاش الملموس الذي يشهده الاقتصاد التونسي. الا انه كان يخشى ان تحول انعكسات الاحداث الجزائرية (والمصرية) دون استمرار تعافي القطاع السياحي.

من الواضح ان ذلك لم يحصل، ويتوقع تاليا ان تساهم السياحة هذا السنة ايضا في زيادة معدل النمو، او على الأقل في بقاءه عالياً.

والانتعاش الاقتصادي هو بالطبع ظاهرة اخرى تبرر النظر بايجابية الى الوضع التونسي. ففي الوقت الذي يستشري الكساد الاقتصادات الاوروبية وتبدو معظم الدول الافريقية والعربية عاجزة عن الاقلاع، بلغ معدل النمو السنوي في تونس ٨,٦ في المئة في العام الماضي، وهو من اعلى النسب في العالم. اما اسباب هذا النمو، فهي تعود، بالاضافة الى تعافي القطاع السياحي، الى جودة المواسم الزراعية في السنوات الأخيرة، لكنها تتصل ايضا" بنجاح جهود الدولة في مزاجية الانفتاح الاقتصادي مع اجراءات الترشيح والاصلاح.

تعدّ تونس اليوم من "التلامذة الشاطرين" القلائل لصندوق النقد الدولي في افريقيا والعالم العربي. فقد تمّ تحرير الاقتصاد من الكثير من الانظمة التي تعتبر في واشنطن قيودا بيروقراطية، وبدأ منذ سنوات تنفيذ برنامج تخصيص الشركات العامة، لاسيما في قطاعي الفنادق والمصارف.

. الا ان ما يميّز تونس، قيل اي شيء، بين معظم دول العالم الثالث التي قيدت الى تطبيق الحلول الليبرالية تحت اشراف صندوق النقد الدولي، هي قدرتها على تجنّب الآثار السلبية المعهودة لوصفات واشنطن على النسيج الاجتماعي. فبخلاف دول اخرى ادى بها الافراط في الانفتاح الى انشطار



اجتماعي حاد بين فئة طفيلية صغيرة تكونت ثروتها بسرعة وزادت باطراد، وشرائح كبيرة تفتقد مقومات العيش بحد ادنى من الاستقرار، لم يحصل في تونس تفاقم للفروقات الاجتماعية الموجودة، وبقيت الفئات المتوسطة على حجمها، مما جعل النسيج الاجتماعي يحافظ على تماسكه الى حد بعيد. ولا يعني ذلك انه تمّ محو ظاهرة الفقر، كما قد يخال الزائر للوهلة الاولى عندما يدور في العاصمة فلا يرى مظاهر بؤس شديدة الوضوح ويجد نفسه مدفوعاً الى التساؤل: ولكن اين الفقراء؟

الجواب عن هذا السؤال بسيط: بلى، هناك فقراء في تونس، ونسبتهم، بحسب المقاييس العالمية التي تحدد "عتبة الفقر"، تناهز العشرين في المئة. غير ان هذه النسبة، على اهميتها، تظلّ اخف مما هي في الجزائر والمملكة المغربية، على رغم التفاوت في الطاقات الاقتصادية والبشرية والموارد الطبيعية بين تونس وكل من هذين البلدين القريبين.

ان المناعة التونسية ضد تفكك النسيج الاجتماعي الذي يتلازم عادة مع الانفتاح الاقتصادي تكمن في شكل اساسي في تراكم الانجازات الاجتماعية منذ الاستقلال، لاسيما في مجال الاسكان. فقد امتازت الدولة بجهد مبكر ومستمر في بناء الوحدات السكنية الشعبية، مما يفسر غياب مدن التنك منذ سنوات عدة.

ولا شك ايضاً ان المناعة الاجتماعية تعزز من جراء انتظام الحياة والمؤسساتية في البلد ومن وجود عدد الهيئات الرسمية الهادفة الى تأطير التكافل الاجتماعي والمستوحاة من النمط الفرنسي. كما انه يجدر التنبيه، من جهة اخرى، الى دور السياحة الجماهيرية الاوروبية التي تشكل تونس مصباً لها، في اعادة اعداد كبيرة من التونسيين من اصحاب المهن الموسمية الصغيرة، وهي مداخيل لا تؤخذ دائماً في الحسبان في الاحصاءات الرسمية.

(تتبع حلقة ثانية)

سمير قصير



Id-Reference	93-Pr-000091	
Media	(Support)	HC
Title		حلقة أولى تونس في زمن المثابرة (١) حياة طبيعية والتكافل يحمي الانفتاح
Subtitle		
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		٩
Date		الثلاثاء ١٩٩٣/٨/١٧
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	زين.عابدين.بن.علي - حبيب.بورقيبة
	Locations	تونس
	Dates	١٩٩١ , ١٩٩٢ , ١٩٨٤ , ١٩٨٧ , ١٩٨٨
	Themes	تونس - مؤتمر مثابرة - ديموقراطية - حزب - دولة - استقرار.أمني - تكافل.اجتماعي - انتعاش.اقتصادي - انفتاح - سياحة - نمو - حركة.نهضة.أصولية - مواجهة
Subject		تونس في زمن المثابرة حيث الحياة طبيعية والأمن مستقر والتكافل الاجتماعي يحمي الإنفتاح الاقتصادي بخلاف الدول العربية